

في الأدب الفربي

قصة فيلسوف عاشق

للدكتور طه حسين

٢

واقصت زيارة أغرست كرات لأسرة كلوتيلد، واشتدت الصلة بينه وبينها متانة وقوة؛ وأخذت تزول من هذه الصلة بقايا هذه التكاليف الاجتماعية التي تواضع الناس عليها في حياتهم المألوفة، والتي لا يزالها ولا يمحوها إلا المودة الخالصة إذا بلغت أقصاها. أو الحب الصحيح إذا انتهى إلى غايته. وألحت الأسرة في التعريض بهذه الزيارات المتصلة، وهذه الصلات التي كانت تتخلص شيئاً فشيئاً من التكلف والاحتشام. وزعت الفتاة نفسها وقتاً طويلاً في أن تتحدث إلى الفيلسوف بهذه الرية التي أخذت تنور حولها في نفوس الأسرة؛ ولكنها انتهت إلى أن أنباته عما عندها من ذلك فاستمع لها، ولم يخرج إلى تفكير وتقدير لئيملي. قلبه سروراً وعظمة، وليأخذ شيء من الكبرياء غريب في ظاهر الأمر. ولكنه مألوف عند العشاق والمحبين. وماله لا يسر ولا ينشط والحب ترفع كل يوم بينه وبين من يهوى؛ وماله لا يأخذ الكبر ولا يملأه التيه وهو يثير الرية في نفوس الأسرة، ويضطرهم إلى أن يشعروا بحبه للفتاة وبأن الفتاة لا تزدريه ولا تفرط في ذاته. ولا تنظر إليه في غير عناية ولا اكتراث. لعلها لا تحبه كما يحبها ولكن في قلبها عاطفة ما تعطفها عليه وتدفعها إليه. ومن يدري؟ لعل هذه العاطفة أن تنمو وتقوى وتخضع لما يخضع له الإنسان بملكاته وعواطفه من التطور. فتتحيل من المودة الخالصة إلى الحب العنيف. وإذا قاله لا يتأفف سعيه وإلحاحه؟ وماله لا يدور حول قلب الفتاة لعله يجد سبيلاً للوغة

والوصول إليه. وقد فعل. فهذا الحنان الذي كان قد كظمه في نفسه أو أسخ عليه لولاً من الجدي يجعله إلى الود أقرب منه إلى الحب، قد أخذ يتجرد من ثوبه المتكلف ويظهر على حقيقته وفي صورته الصحيحة، وقوته التي لا تبقى على شيء. وهذا التحفظ الذي كان اصطنعه في الحديث يزول شيئاً فشيئاً. وإذا هو صريح، وإذا هو يجدد إعلان الحب، ويكرر هذا الإعلان ويحيط الفتاة بشباك من الطلب والأمل والتضرع والاستنطاق والاغراء الذي يتجه إلى العقل حياً وإلى الشعور حياً آخر. وكيف تريد أن تفلت الفتاة من هذه الشباك جميعاً وهي لا تكاد تخلص من واحدة حتى تتعثر في أخرى. هي مضطرة إذاً إلى أن تسلم بعض الشيء وتصانع إلى حد ما، وتهزم عن خط الدفاع الأول كما يقولون.

ومل كانت هي في نفسها منصرفة عن الفيلسوف حقاً راغبة عن حبه كل الرغبة؛ لست أدري ولكنها على كل حال عجزت عن المقاومة فكنبت إلى أجوست كونت لبته بهذا العجز وتظهره على ذات نفسها وتبين له رأيها في التخلص من هذا الموقف الدقيق ورأيها أنها لم تكن تقدر أن أحداً يكلف بها ويتهاكك عليها، وإنها لم لا تكلف بأحد ولا تتهاكك على أحد، ولكن أملها إن صح أن يكون لها أمل في الحياة، إنما هو طفل تقف عليه حبا وحناها وقوتها ونشاطها. وهي إذا شاركت رجلاً في الحياة وإنما قوام هذه الشركة الوصول إلى تحقيق هذا الأمل. وهي حريصة كل الحرص على أن يكون شريكها أن ظفرت به رجلاً غنازاً مرتفع النفس كبير القلب خليقاً بالأكابر. وهي تجد هذه الخصال كلها في الفيلسوف ولا تكره أن تتخذ شريكاً في تحقيق هذا الأمل وخلق هذه الطفل. ولكنها لا تريد أن تتجده ولا أن تنزهه فهي لا تحبه بالمعنى المألوف لهذه الكلمة وحياتها ليست بالشئ النفيس

الذي يحرص الناس على الاشتراك فيه . فهي بائسة تحتاج الى من يعزبها وهي فقيرة تحتاج إل من يعولها . وهي لا تحمل لشريكها الامودة صادقة وإخلاصا لاحد له .

ويقرأ الفيلسوف هذا الكتاب فيجن جنونه وتدور به الأرض ثم تهدأ نفسه . وتشرق في وجهه الدنيا وتبسم له الأيام . وهل كان يطمع في أن تقل كلوتيك منه مثل هذا وترضى أن تكون له خلية وتقاسمه الحياة وتشاركه في خلق إنسان؟ وهو قابل اذا وهو راضى وهو سعيد وهو واثق بأن هذه خطوة ستبعتها خطوات وهو يكتب اليها ويمضى كتابه على هذا النحو : زوجك المختلص أجوست كونت .

وتزوره ذات يوم زيارة المستقلة المستعدة للوفاء بالوعد وإنفاذ هذه الشركة . فيلقاها فرحاً متبهاً ثم يجلسا ويخوين بيديها ويقدم اليها صلاة فلسفية حارة . ولكنه عالم لاحظ له من براعة الأدباء ولا من براعة الرجال الذين تعودوا عشرة النساء والتألف لقلوبهن . فصلاته فلسفية وحديثه بعد ذلك عملي كله وحركاته حين يضطرب في غرفته منظمة قد قدرت تقديرأ . فهو لا يرفع شيئاً إلا بحساب ولا يضع شيئاً إلا على نظام ولا يأتي حركة إلا إذا كانت لها علة ظاهرة وتأويل معقول وهو يتحدث عن دخله وعما سيحتاجان اليه من نفقة وعن ترتيب البيت وعن النظام المادى للحياة . وهو على هذا كله دميم لاجمال في شكله ولاروعة ، قصير متقدم البطن مضطرب الوجه . فابن يقع هذا المنظر؟ وأين يقع هذا الحديث؟ وأين تقع هذه الحركات المنظمة من قلب امرأة لم تتجاوز الثلاثين بعد؟ ما أسرع ماضاقت هذه الشركة ورغبت عنها ، وما أسرع ما ضحكت من نفسها في نفسها ، وما أسرع ما استيقنت انها كانت تحاول أمراً لا قبل لها به ولا قدرة لها عليه . وما أسرع ما نهضت وهي تقول : لقد تقدم الوقت دعني أكتب إليك . وما أسرع ما خرجت من الباب وهبطت السلم وبلغت الشارع ومضت . والفيلسوف ينظر اليها من النافذة . فاذا هي تسرع أمامها لا تلتفت ولا تلوى على شيء . وتكتب الى الفيلسوف بعد ذلك معتذرة متعلة قائلة إنها قد تعجلت الوعد وتبين لها أنها في حاجة إلى التفكير الطويل وأن الخير في أن تمهل نفسها ترى .

فلا يكاد الكتاب يصل الى الفيلسوف حتى يحس أنه قد أذاها بحديثه ويكتب اليها مطلقاً ملحاً . وتمضى هي في أبحاثها . ويشد هو في الحاحه حتى اذا أثقل عليها اجابته في شيء من الشدة والصرامة أنها لا تستطيع أن تتبع نفسها ولا أن تساوم فيها فان كان يفعلك ما أعرضه عليك من المودة الخالصة الطاهرة فذاك ولك أن تلقاني في بيت أسرى كئيبك من قبل ولا بد لي من ستة أشهر أفكر فيها وأروى وإلا فاني عائدة إل ما كنت فيه من وحده وعزلة . هنا يفتق الفيلسوف من ذلك السكر الذي كان قد غمره وملاً عليه قلبه وعقله . ويعود إلى حاله الأولى ليس شديد الرجاء ولكنه ليس يائساً بل هو بعيد كل البعد من اليأس واثق بأن العاقبة له وبأن الفوز لن يخطئه مهما يكن من شيء . سبصر اذا ويستأنف حياته الأولى يلتق الفتاة في بيت أسرتهما مرتين في الأسبوع .

وكلاهما سىء الحال ضيق ذات اليد . اما هي فتبحث عن عمل لتعيش منه او لترفع به بعض الشيء حياتها الضيقة الحثثة . وهي لا تردد في أن تشغل مكان السكرتير في مكتب من المكاتب او عند رجل ذى مال ان ظفرت به . ولكنها لا لا تظهر شيء . ولا باحد إلا فيلوفها الذي قد وثقت به واطمئنت اليه . فهي لا تخفى عليه من أمرها شيئاً وهو يعدها بالمعونة ويعرض عليها ان يقرضها ما تحتاج اليه . بل يؤكد لها أن كل ما يملك من المال ملك خالص لها تستطيع أن تأمر فيه بما تشاء . نعم ولكنه هو لا يملك شيئاً أو لا يكاد يملك شيئاً . أعماله شاقة ونفقاته ثقال والمستقبل أمامه مظلم . هو يلتقى دروساً رياضية في بعض المدارس الحرة ولكن صاحب المدرسة يريد أن يلقى هذه الدروس رغبة في الاقتصاد . وهو يكتب شيئاً من مدرسة الهندسة ولكنه في حاجة إلى أضعاف هذا الذي يكتبه . وهو يلح على تلاميذه في إنجلترا أن يرتبوا له رزقاً معلوماً . ولكن التلاميذ لا يؤمنون لأستاذهم بهذا الحق وهو مضطر إلى أن يرزق أمراته ثلاثة آلاف فرنك في كل عام . ولا بد له من أن ينقص هذا الرزق وأن يحتدل منه تلك . وهو على هذا كله يعمل . وهو على هذا كله يحب وهو حريص على ألا يقصر في ذات فلسفته ولا في ذات عشيقته . وعشيقة

أبضا تعمل لخدمة الأدب أن أعجزها أن تعمل لكسب المال. فقد بحثت قصتها الأولى بعض الشيء. فإلّا لا تكتب قصة أخرى وقد بدأت كتابة هذه القصة وأخذت نفسها لها موضوع عامع شئ. من الرمز والابحار. وأخذت كلما كنت شيئاً أرسلته إلى الفيلسوف. فقرأ وبمعجب وبهيم. وبقرط فيسرف في القربط.

ويشأن زيارته للأسرة محتملاً ما يرى من الأعراض يقابله عنه في كثير من الأحيان. حتى إذا كتب أخو الفتاة رسالة في الرياضة وعرضها على أستاذه ونظر الأستاذ فيها وأطال النظر ولم تعجبه. فيضطر إلى أن يعلن رأيه إلى تلميذ في غير تردد وإلى أن يتحدث إلى الفتاة بأن حبه لها وحرصه على مودة أخيها أن يمنعه من أن يعلن رأيه في هذا الكتاب الذي لا خطر له. هنالك يرداد سخط التلميذ على أستاذه وهذا هو الذي يدور حول أخته ويشرب القهوة في البيت مرتين في كل أسبوع. ثم لا يشجع تلاميذه ولا يعترف لهم بما يوفقون إليه من نضل.

ويشأن إنكار الأسرة على الفتاة وثبت هي لانكارهم. فتجادلهم في أستاذها وتزودهم عنه. وتخرج من عندهم مكدودة متعبة وتروى إلى بيتها وقد فقدت أو كادت تفقد الشجاعة والنشاط. فتفكر في الفيلسوف. وفي أنه الرجل الوحيد الذي يؤثرها بالحب. ويصفها المودة والعطف. فتنازعها نفسها إليه. ولكن نفوراً قريباً يمكنها أن تدفع في هذا الحب. فتكتفى بالشكوى. وتقبل من الفيلسوف عطفه وحنانه. ومعوته المالية أيضاً. وكانت أعراض الضعف قد ظهرت عليها. فأخذت تحس فتوراً وانحلالاً. وأخذت تقاوم سعلاً متكرراً مضناً ولم تقدر إلا أن ماتحه عرض من أعراض هذا الجهد الذي تلقاه. صبرت واحتملت وجدت في كتابة قصتها. وجدت أيضاً في الأناشيد إلى الأستاذ وأذنت له أن يزورها في بيتها الخائن. فأحببت أمه. وبألفت في أحيا. هذا الأمل حين أعدت إلى الأستاذ باقة من الزهر الصناعي صنعها يدها. وأرسلت معها أياتاً من الشعر لقيمة لها. ولكن الفيلسوف رآها آية من آيات اليأس.

وزارها الفيلسوف ذات يوم فاذا هي متعبة تلقى من الآلام

جهداً شديداً فتحدث إليها وأطال الحديث وأطمئنت هي إليه إطمئناً شديداً. فلما نهض ليصرف اختلس قبلة من قفاها. ولكنه لم يكديله يته حتى كتب إليها كتاباً مشهوراً يعتذر فيه من هذه القبلة. لأنه لم يكن يثق حين اختلسها بأن نفسه كان نقياً طيب النش. وردت عليه في هذه السذاجة البديعة. لا بأس عليك فأنا التي منحتك قبلة صديقة مختصة.

ويشأن المرض والفقر بالفتاة. ويشأن الهيام والبؤس بالفيلسوف. وتزول بينهما الكلفة. وتكثر الزيارات عنده. ويعرض عليها خادمته لتعيناها على الحياة. فتأني. وتقضى الشتاء وحيدة عاملة لا يلبسها عما تجد إلا زيارات الفيلسوف لها وعطفه عليها. وقد عرضها على الطبيب فقدر لها مرضاً أخذ يعالجه وهو بعيد كل البعد عما كانت تجد. واشترك الفيلسوف في الأورا على فقره ليلى صاحبه بالموسيقى من حين إلى حين. ولكنه لم ينس الحب ولم يفكر في الأعراض عنه فهو ما زال يلعب على الفتاة ويتقاضاها هذه الصلة المادية التي تخرج ما بينهما من اتلاف العقل والقلب وهي تأني حتى إذا أثقل عليها فأسرف. كتبت إليه تدع لما يريد. وهي تقول: إنك تطالب بأجر ما تبذلني من ود ومعونة فلن أعاطل في تأدية هذا الأجر. هنالك استنحى الفيلسوف واستكبر فرفض هذا التسليم وأبى إلا صلة مصدرها الحب والرغبة.

وزارته ذات يوماً وهي مكدودة قد أجهدها المرض. واشتدت بها الحمة فلما انتهت إلى البيت استلقت على وسادة ونظر إليها هو وإن في عينه لجا لا حذله. وشهرة لا حذله. وإذا هو يرى عينيها الزائنتين من الألم وخديها الذين تردها الحمة فلا يرى إلا جبالاً مغرباً وحسناً قاناً. وهي مستلقية أمامه لا حول لها ولا طول. وهو قادر عليها. ولكنه ليس قادراً على نفسه. فهو يشتهي إلى حد الهيام ولكن عقله ووقاره يأبى أن عليه هذا الغضب. فتحل هذه الشهوة الحادة العنيفة إلى حب وقور. فيه شيء كثير من جلال الدين. والمرض والبؤس يلحان على الفتاة. والحب والفقر يلحان على الفيلسوف وإذا هي قد لزمت غرفتها. ولزمتها خادم الفيلسوف. وجاء

استيقظنا منها . خرج الفيلسوف فلزم داره فلما كان من غد جاءه الرسول فأقبل مسرعاً حتى انتهى الى البيت . فلما رآته الأسرة أخرجته له وخلت بينه وبين غرفة الفتاة . فدخل وأغلق الباب من دونه وأرجحه فأحكم أرتاجه . وأقام ساعات طوال لا يخرج ولا يدخل عليه أحد ويستطيع الخيال أن يذهب كل مذهب في تصور ما قال الفيلسوف للفتاة المحترمة أو ماعمل أمام هذا الحب العظيم الذي كان الموت يبله عليه قليلاً قليلاً . فلما تقدم النهار ودى المساء فتح الباب وخرج صامتاً لا يلقى على شيء . فأقام في داره ولم يشهد الجنازة ولم يشيعها الى القبر . وماذا يعني من الجنازة ؟ لقد حاول أن يصل إلى هذا الجسم فلم يجد إليه سبيلاً وحاول أن يصل إلى هذه النفس فلم تقاومه ولم تمتنع عليه ، وإنما أسرعته الى فاقامت في عقله وقلبه . لم تمت كلوتيلديا وإنما أودعته خير ما فيها فهي اذا في قلبه ، هي اذا تقاسمه حياته الذائلة حتى اذا انقضت هذه الحياة الموقوتة امتزجت بنفسه فكانت منها نفس واحدة خالدة . عكف الفيلسوف في داره على هذه الصورة يعدها ويهيم بها وما هي إلا أن استحاله لكلوتيلديا وضعت له التقاليد والوان الصلوات والعبادات . وأغرب من هذا كله أن الحياة الظاهرة للفيلسوف لم تنير . فدروسه كانت تلقى في نظام ومجلاته كانت تقرأ في نظام ورسائله كانت تقرأ ويرد عليها في نظام أيضاً .

ما أعجب أمر الانسان تراه ساذجاً ييرا وان شخصه لشديد التعقيد .

انظر مجلة العالمين التي صدرت في ١٥ فبراير

الكتب

صاق نطاق هذا العدد عن نشر باب الكتب وقد اجتمع لدينا طائفة كبيرة من المؤلفات الحديثة القيمة تستحق النظر فيها والاشادة بها والتعليق عليها . فنحنر إلى حضرات المؤلفين والقراء من تأجيل ذلك إلى العدد المقبل .

العدد الأول من الرسالة

بقى لدينا مقدار قليل من الطبعة الثانية لهذا العدد . وهو يطلب رأساً من الادارة .

القصة المصرية

نشرنا في هذا العدد جرماً كبيراً من هذا البحث القيم ونحضر تمتع في العدد المقبل .

الطيب فلم يشك في أنها ملولة مشرفة على الموت . وكثر تردد أمها عليها وكثر تردد الفيلسوف أيضاً . وكانت بين الأم والفيلسوف حول هذا الجسم الناحل وهذه النفس التي تنأب لمفارقة الحياة ، خصومات مؤلة ولكنها لا تخلو من فكاهة . فأما الأم فكانت أسيرة الاوضاع الاجتماعية ، أسيرة هذا الحب الذي يعطف المرأة على ابتها . وأما الفيلسوف فكان أسير هذا الحب الفلسفي ، ولم يكن يتردد في أن يعلن أنه وحده صاحب الأمر في هذا البيت لانه الزوج الخالد للفتاة . ولم لا ؟ لقد كانت ينهض بكل ما تحتاج اليه ، ويعرف من تمريرها ما ظهر وما خفى . لقد كتبت اليه مرة تقول : ما أشد حاجتك الى الراحة أيها العاشق التمس ، فلم تظفر من خيلتك إلا بشر ما يظفر به الأزواج . وكان مؤلماً جداً ، وباعثاً للابتسامة أحياناً أن يرى الفيلسوف جانياً أمام السرير وهو يصل الى الفتاة فيدعوها أخته وزوجه وابنته . ويؤكد لها ويقسم لبعضنها من الموت ولأن عبث الطبيعة بحسبها فليضمن هو لنفسها الخلود . ولم لا ؟ ألسنت أرقى امرأة عرفتها الانسانية . لقد لقيت أرق عقل عرفته الانسانية ، فلن يكون للفتاة عليك ولا على سلطان .

وساءت حال الفتاة ودعى القيس لبيهاها لاستقبال الموت فلم تمنع هي ولم يمنع هو . وأقبل القيس فأدى عمله والفيلسوف يراه ويسمع له ساخطاً حتى اذا أنصرف أقبل فافكر هذه العادة الدنيئة التي تنتزع المريض انزعاعاً من الحياة لتدفعه بين ذراعي الموت .

أقبل عذب الصوت رضى النفس حنون القلب فجأ الى السرير وحنى على الفتاة وأخذ يتحدثها أحاديث عذبة كلها أمل وكلها رحمة . ثم انصرف وعاد فأذا الأسرة كلها مجتمعة واذا هم يأبون عليه أن يصل إلى المريضة . فتور ثأثرته ويخرج عن طوره ويأبى أن ينصرف ويهم بأخراجهم جميعاً لأن المريضة زوجه وخليته وهي له وحده دونهم ، بذلك اعترف له وعلى ذلك أقسمت له فيجب أن يخلى بينه وبينها . فأما الأم فشكر وتبكي وتستغذى . وأما الأخ فيقبل على أستاذه منفراداً . وأما الأب الشيخ فيقبل هادئاً وتوراً يطلب الى الفيلسوف أن يدع المريضة لأهلها .

فانظر الى الفيلسوف وقد جنى أمام الشيخ ضارعاً مستعطفاً حتى رقى له الشيخ فقال انصرف الآن ولك علينا أن ندعوك اذا